من أعماق التاريخ

صداقة عدوين

للدكتور محمد يحيى الهاشمي

***

السكونه مخيم في البادية ، ولا شيء يعكره إلا وقع خيول بني فهد في مرابض بني تغلب ، وما كادت تشعر هذه القبيلة بالخطر الذي حاق بها حتى نادى بها مناد ان اتخذوا اسلحتكم وهبوا القتال الاعداء الذين يريدون ان يغدروا بكم فيهلكوكم عن بكرة ابيكم . وما كاد يسمع (خلف) بالخطر المداهم حتى انبرى لمكافحة اعدائه والذود عن حياضه ، وقد شهدت له الوقائع الماضية بالبطولة النادرة والشجاعة الفذة ، وكاد يصرع كل من يقابله ، ولم يتمكن احد ان يقف امامه ويبارزه غير عباس بن الشيخ حكيم من عشيرة فهد . كان القتال الدامي سجالاً بين الطرفين ، واحيرا انقض خلف على عباس ووثب عليه وثبة الليث وضربه ضربة قاضية ارداه قتيلا بهـــذا العمل الجريء خلص خلف قبيلته من خصم جبار عنيد .

لما شعرت قبيلة بني فهد ما حل بفارسها وبطلها المغوار ، هاجت للقتل والأخذ بالثأر . اما خلف فقد لاذ بالفرار في ظلام الليل الدامس ، واختفى عن الابصار في اقرب دار وجدها . وفي اثناء مكثه تعرف على ابنة صاحب الدار ، وتآلفت بينهما اواصر الصداقة .

ومن الاحاديث المختلفة التي سمعها في المنزل الذي لجأ اليه تبين له انه في قلب اعدائه وفي حماية الشيخ حكيم الذي قتل ابنه منذ عهد قريب ، عندما علم ذلك اصبح في ازمة نفسية هائلة واراد ترك الدار توا ، لكنه لم يجد من المستحسن تركها دون استئذان ، فلعل القبيلة التي هبط بمباضيها اتهمته بتهمة ما كذلك لا يدري ماذا يكون موقفه من الفتاة التي هام وجدا بها ان هي علمت حقيقته ولم يتجاسر مفاتحة احد بشيء ، وكادت نفسه تنفطر من شدة الحزن والغم ، ولم يدر احد سر انقطاعه عن الطعام ودافع اسار براسي المرتسمة على جبينه . ولما ضاقت نفسه ذرعا من الكتمان طلب من الشيخ ان ينتحى به جانبا ليفضي له بمكنون صدره ، فذهب وإياه الى بيت منفرد ، ولما تيقن انهما بعزلة تامة قال له : « اني قاتل ابنك وحبيبك عباس فاصنع بي ما شئت » وما كاد الشيخ يسمع ذلك حتى اضطرب اضطرابا شديداً وود القضاء على ضيفه فوراً ، وما ان قبض بيده على سلاحه حتى استفزه شعور الشهامة وكرم الضيف والخجل من القبائل إذا ما فتك بمن هو في حماه ، لأنه من العيوب الفاضحة والعار المشين عند البدو قتل الضيف او مسه بأي اذى ولو كان عدواً لدوداً ، فرجاه الرحيل عاجلا ، كي لا يوقظ في نفسة الضغائن النائمة والانتقام المكبوت ، بعد ان وعده بكتمان الخبر وابلاغه مأمنه جريا على عادات العرب المتبعة .

هكذا ترك خلف القبيلة المعادية مؤكدا للشيخ انه سوف لا ينسى احسانه ونبل معاملته . ثم رغب ان يودع الفتاة ولكن ما العمل والموقف حرج وقد وجد فرصة هجران هذه البقعة ، والفرصة تمر مر السحابة صيف . اثر هـذا الموقف في اعمق قلبه اثراً لا يمحى ومالت نفسه الى تلك القبيلة التي كانت من ألد اعدائه بالامس ميلا شديدا .

بينما كان ممتطيا صهوة جواده ينهب الارض نهبا فارا من منطقة الخطر وهو يتنفت يمينا وشمالا ، ابصر على البعد فارسا مقبلا نحوه ، ظنه بادئ ذي بدء انه من الفرسان المعادية الذين يودون الغدر به ، فكمن تحت صخرة عاتية كي لا يراه احد ، وسرعان ما دهش عندما ابصر سعاد ابنة الشيخ حكيم قادمة نحوه وليله الشديد نحوها برزلها وافترب منها ، فطفقت تقص عليه حبها له والمها المرير لتركه الدار دون وداعها . اما هو فاحنى رأسه الى الامام وسكت سكوتا عميقاً ، استغربت سعاد هذا الوجوم ليقينها به انه كان يشاطرها الحب ويقاسمها الغرام . ولما ألحت عليه بالسؤال ، وطلبت منه ان تعرف ما الذي يثقل

خميره ، أنسى لها سره الرهيب وقال لها :

« اني عدو لا أستحق الرحمة والعطف ؛ وغير جدير بالمحبة ، إذا هو قتل اخيك عباس ، وما كادت تسمع ذلك حتى نظرت اليه شزرا ، واختطفت سلاحه وازمعت على القتك به ، ولما لم يبد اية مقاومة ، عادت فعطفت عليه ورغم الحاحه بالزوم قتله ، وقد احست بقلبه الدامي من دموعه المترقرقة التي كان يحاول احتباسها ، ولما رأته على هذه الحالة ، اقتربت منه ومسحت له الدموع ووعدته بالعفو والمعونة . اما هو فكان يفضل القتل من يديها على ان يبقى حياً ، لان الحياة لا قيمة لها في ناظره بعد ان علم انه كان مسبب اكبر ألم لاعز الناس لديه . ولما بلغت ما يجول في خاطره تقدمت منه وقالت له :

« انس الماضي يا احب الناس لدي ، وسوف ابذل جهدي للحصول على عفو قبيلتي وعلى اخماد لظى الضغائن المتوقدة بين القبيلتين » وهكذا ودعته ووعدته الا تقطع اخبارها عنه .

عاد خلف الى قبيلته ، وبعد ان مكث هناك عدة ايام ألصقت به قبيلته تهمة عظيمة وهي محاولة صداقة القبيلة المعادية بمفرده ، فقص لذويه حظه والكرم الذي لاقاه من تلك القبيلة ، واخيرا اقنعهم بصدقة وسعى لازالة الخلاف

بقي هذا الصب المتيم بين قنوط وامل منتظراً مدة طويلة خبرا من حبيبته ومالكة قلبه ، وقد عيل صبره ونفذ انتظاره . ففي ذات يوم بينما كان جالساً في المقعد (دار الضيوف عند البدو) ابصر عن بعد فارساً ، ولما وصل ذلك الرجل الغريب ترجل عن حصانه ودخل البيت وجلس قرب شيخ القبيلة ، وعندما عرف خلف ان الفارس قادم من لدن اعدائه بالأمس واحبائه اليوم ، دنا منه وقلبه يطفح بالأمل وسأله عن قبيلة حبيبته ، فاجاب الضيف بان العداوة قد خفت بفضل غادة كريمة تدعى سعاد ، وهي سوف تتزوج عما قريب حسب رغبة والدها برجل من قبيلتها ، لأن الأب شعر بحبها لعدوه ، فصمم على تنفيذ ارادته ولو كان ذلك دون خرط القتاد

ما كاد خلف يسمع هذا الحديث حتى امتطى صهوة جواده قاصدا قبيلة سعاد ، فلم يذهب هذه المرة الى دار الشيخ بل عند احد افراد القبيلة ، كاتما هويته بغية استقصاء الاخبار باحثاً عن حبيبته في كل متعرج وفي كل طريق . وعندما رآها تريد املاء الماء من البئر اسرع نحوها وساعدها ، وقد فرحت للقائه كاتمة فرحها في اعماق قلبها وضربت له موعدا باغنية انشدتها امام رفيقاتها ذكرت فيها المكان الذي ودعته فيه ، وقد فهم ما ارادت ، دون ان تشعر رفيقاتها بما تقصد وما تريد .

التقى الحبيبان في المكان الموعود ، فافرغ كل منهما صبابته لصاحبه وما يقاسيه من آلام الفراق ، وافضت سعاد لخلف برغبة والدها في زواجها من رجل من قبيلتها لاتميل اليه ، لأن اباها شعر بحبها لعدوه ، فهو يريد ان يقف حائلا دون ارتباط عدوين ، تشاورا في الامر ، وحارا في اوجه الحيلة ، ومن ثم نصحت سعاد حبيبها بالذهاب الى رجل عابد يطلب معونته ، على ان يبين له الخير والبركة للطرفين في هذا الارتباط لأن فيه حقناً للدماء .

ذهب خلف الى العابد المطلوب ، فوجد في الطريق فتى من قبيلته يسوق قافلة كبيرة ، ولما وصل الى خيمة معبئة صرخ باسم رجل فبرز امامه شيخ كبير ، ابتدره بالسؤال عن حاجته فاجاب الفتى :

(هذه امتعتك يا عماه ، خذها مني فقد عملت بوصية والدي) ، كانت ملامح الرجل المسن تظهر العجب والاستغراب عندما شعر الفتى بذلك بدأ يذكر الشيخ بعلاقة قديمة مع والده مضى عليها اربعون سنة ، وان اباه مدين له بمبلغ من المال ، وكانت يد ابيه ضيقة ، حيث كان في ضنك من العيش لم يقدر معها على اداء دينه ، وكان ضميره يعذبه رغم العداوة المشتعلة بين قبيلته وقبيلة مدينه ، وقد بين له ايضا ان والده عندما احتضر ودعه الوداع الاخير وألح عليه بلزوم تأدية دينه . فرح الشيخ لهذا الحديث ، وفرغ الاحمال وادخل الفتى الامين ضيفا كريما . دخل خلف مسلما على ابن قبيلته وعلى الرجل الكبير ، ورجاهما بلزوم اصلاح ذات البين وسأل عن دار العابد ووجهها .

وصل خلف الى كوخ بسيط مبني من الآجر فيه رجل يتعبد ، ولما انتهى من عادته سلم خلف عليه وقص له قصته مبينا له بان القرب الى الله لا يكون بالعبادة فحسب ، بل بتوطيد السلام بين الناس . وقد حدثه بما شاهد اثناء الطريق من

الامانة النادرة ، ففرح العابد بما سمع ووعده بالعون .

ورجع خلف الى دار مضيفه وبعد عدة ايام التقى بالعابد واخبره بالمراحل الهامة التي اجتازها توصلا لغايته ، وليس على خلف الا الذهاب الى (بكري) الخطيب الكبير السن والطلب منه الاقلاع عن خطبته ، ولما ذهب الفتى المتيم الى دار ذلك الخطيب رأى تعبداً منه اضطر معه الى ان يقول له : [اني على استعداد لاضحي بسعادتي من اجلك ، انى عدو ، اني دخيل لا استحق حب سعاد ، لأني قتلت اخاها] وقد اجاب بكري [انك لست بقاتل ، فالقتال بجانب افراد القبيلة واجب مقدس وقد اخبرتني سعاد بحبها لك ، فانا لا اريد ان تعيش هذه الفتاة شقية بجانبي ، فلا اكون بذلك سعيدا ، وقد اقنعني العابد بأن القتال بين القبيلتين جريمة كبرى والمصاهرة تكوّن رابطة دموية تقضي على العداوة والبغضاء] ، عند ئذ تناول خلف يد بكرى وقبلها ، معلناشكره ومتمنياً من الله ان يثيبه على صنيعه

بعد المشورة من سعاد واستصحاب العابد ذهب خلف الى دار شيخ القبيلة ، وغب الاقناع من الجانبين ، لان قلب الشيخ ونظر الى خلف نظرة ملؤها العطف والحنان ووعده باعطائه ابنته ، عندها تقدم خلف وقبل الارض معلناشكره الجزيل

هكذا أتى الحب بالمعجزات وفعل العجائب وألان القلوب وجعل ممن كانوا اعداء بالامس بفضل ما ازكاه ذلك الميل الخفي بين الحبيبين اخوانا متحابين . ولو اتفقا ما في الأرض جميعا لما قدروا على تأليف القلوب ، ولكن الله الف بينهم ، والله قد اظهر سره في الحب .

هكذا تم عقد النكاح وكانت ايام الافراح لسود قبيلة بني فهد لأن حفلة العرس كانت عظيمة اشتركت فيها افراد القبيلة جميعها مع نفر ليس بقليل من افراد القبيلة الثانية لاسيما اهل العريس الذين مكثوا بضعة ايام ، ثم ودعوا وانصرفوا ، لانهم علموا ان العريس يريد الرجوع مع عروسه بمفرده ليتناجيا الغرام طول طريق الصحراء الموحشة . كانا يمتطيان فرسين من الخيل الاصائل ، وكان الماء محمولا على بعير يسير وراءهما ؛ في اثناء الطريق ظمأت سعاد فتناولت قليلا من الماء ونسيت سد الاناء سداحكما فاخذ يتسرب ببطء الى ان نضب معينه ، فلما احست بالعطش ثانية لم تجد ماء ، فاخذ حبيبها يفتش في كل مكان عما يروى غلتها دون جدوى ، وبعد جهد جهيد اهتدى اليه فملأ كفيه به ، ولكنه لما عاد الفي ويالالاسف سعاد جثة هامدة لا حراك فيها .

ما كاد يرى حبيبته على هذه الصورة المحزنة حتى ارتمى عليها ، واخذ يبكي وينتحب الى ان اغمي عليه في هذا الموضع القفر . مضت ساعات والحبيبان ملقيان على الاكثبة الرملية في الصحراء المحرقة الموحشة لا يدري بهما احد .

بعد ان مضى زمن طويل عثر احد افراد عشيرة فهد على بعيرها الهائم على وجهه ، فعلم ان خطبا جللا حل بها فاخبر في الحال افراد قبيلته وسرى الخبر بسرعة البرق الى القبيلة الاخرى ، فذهبت القبيلتان حيث رأتهما ميتين ، فبكت عليهما بدمع مدرار وصلت على روحيهما .

زهقت كثير من ارواح القبيلتين وسفحت دماؤهما الغزيرة هدراً فكانت الاحقاد والضغائن تزداد كلما ازدادت الضحايا ، فكانت كالحطب الذي يلقي في النيران المتأججة فيزيدها اضراما واتقادا . اما هاتان الضحيتان فقد ادمتا نفوس القبيلتين والفت بين قلوبهما ، للمرة الاولى تقف افراد القبيلتين الى جانب بعضها بعضا يبكون ضحيتهم الغاليتين

ما أشد مفعول الالم في تكريم جوهر النفوس اذا ما امتزج بالحب

حلب — الدكتور محمد يحيى الهاشمي

من الادب التركي

انتظار !

آه ! ... من الذي يظن باني سعيد ...
آه ! ... لو تعلمين كيف تتعذب روحي ! ...
طيفك يتمثل في خاطري ...
وآلامك المتشابهة تهز فكرتي ...
فيلحق بك عمري وعقلي !!! ...
لك عينان كزرقة السماء ...
ولي حب كسحر الفجر ...
كما لك ايضا من الخالق الجمال الفطري ! ..
فلو فصلوا روحي عن جسمي
لا اقوى على فراق روحك !!! ...
انت يا ذات العيون الزرقاء التي تحكي السماء ! ...
هنا ... هنا ينتظرك حبيبك المدنف !!! ...

دمشق: مرداد الشطي